مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 10 / العـدد:02 (جويلية2022) ص 446– 461
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

نازلة القوافل التجارية من توات إلى شنقيط خلال القرن 13هـ/19م وأهميتها التاريخية

– نوازل القصري الموريتاني أنموذجا–

Nazilet Commercial Caravans from Tuat to Shenguitt during the 13th C AH/19th C AD and Its Historical Importance – Nawazil al-Qasri al-Muritani as a Model –

رمضان هداجي [1]، الدكتور: عبد الكريم بلبالي [2]
Ramdane HADADJI [1], Abdelkarim BELBALI [2]
1 جامعة أدرار (الجزائر)، hadadjiramdhane3@univ-adrar.edu.dz
2 جامعة أدرار (الجزائر)، Abdelkarim Belbali@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/07	تاريخ القبول: 2022/05/12	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص: تعتبر نوازل القصري من المؤلفات الشرعية المهتمة بقضايا المجتمع التي لا يمكن للباحث الاستغناء عنها، فهي إلى جانب دورها الفقهي تدرس كرونولوجيا الأحداث التاريخية التي تساعد المؤرخ في تحديد فترات ومجالات التقارب بين الشعوب، فيضطر أحيانا لإقتباس نصوصها وإظهار سمة المعاملات المتصلة بحياة الأفراد والجماعات، وجاءت نوازله في القرن (13هـ/19م) لتبرز الجانب الأخر للنوازل الموريتانية، فالقارئ لفصولها يدرك أنها لم تكن رهينة الإتجاه المعرفي الواحد بتنوع مادتها العلمية وأهمية أحداثها التاريخية، من خلال عرضها قضية جوهرية متمثلة في عقود القوافل من توات إلى شنقيط وأثرها في بناء علاقة القطرين الصحراويين، فالقضية التي عالجتها النازلة جرت وقائعها في بيئة صحراوية منعزلة؛ إلا أن القصري بحسن تدبيره رسم مخرجاتها وكشف الأشياء الخفية حتى اتضحت معالمها، بصورة مكنتنا من تتبع جزئياتها واستخراج ما يرمز لمواطن التقارب التواتي الشنقيطي.

الكلمات المفتاحية: توات؛ شنقيط؛ الصحراء الكبرى؛ النوازل؛ القصري؛ محمد المهدي.

Abstract: Nawazil al-Qasri are among the legitimate literature concerned with the issues of society that the researcher cannot dispense with. In addition to its jurisprudential role, it studies the chronology of historical events that help the historian in determining the periods and areas of rapprochement between peoples. It is sometimes necessary to quote its texts and show the characteristic of transactions related to the lives of individuals and communities. Nawazi al-Qasri came to highlight the other side of the Mauritanian nawazil. The reader of its chapters realizes that it was not held hostage to the one cognitive trend with the diversity of its scientific material and the importance of its historical events. through its presentation of a fundamental issue represented in the contracts on the caravans from Tuat to Shenguitt and their impact on the building of a relationship between the two Saharan regions. The case dealt with by the nazilah that took place in an isolated Saharan environment; but al-Qasri drew its outputs and revealed the hidden things until clarifying its dimensions in a way that enabled us to follow its particularities and extract what symbolized the points of the Tuati-Shenguitti reproachment.
Keywords: Tuat; Shenguitt; Grand Sahara; Nawazil; al-Qasri; Mohammed al-Mahdi.

المؤلف المرسل: رمضان هداجي، **الإيميل**: hadadjiramdhane3@gmail.com

1. مقدمة:

يحتاج الباحث في دراسة ماضي البلاد الصحراوية السائبة إلى استنطاق مختلف المصادر، للوقوف على الجوانب المنسية من تاريخها، وتعد النوازل الفقهية من المصادر الرئيسة التي تناولت أشكال الظلم الاجتماعي والقهر النفسي الذي يطال سكان البوادي، في ظل إنعدام الأمن وغياب رادع السلطة المركزية، فهي بمثابة الواسطة الإجتماعية والمتنفس الشرعي للفئات المستضعفة. من أجل طرح قضاياها واسترداد الحقوق المهضومة، وقد فصَّلت النوازل الشنقيطية في بعض أشكال الإعتداءات، التي كان ضحاياها غالبا تجار القوافل، والمسافرين عبر المسالك الصحراوية المهجورة غير الآمنة.

ولما يكتسيه الموضوع من أهمية. صبَّ أعلامها كامل طاقاتهم البشرية والفكرية لمعالجة مشكلاتها، وإيجاد حلول توافقية تنصف المظلوم وتقوِّم الظالم، وهو ما استوقفنا مع العلامة القصري أحد أعلام النوازل في القرن (13هـ/19م)، مع نازلة القوافل التجارية من توات إلى شنقيط تزامنت وفترة حياته، ساعدت أحداثها المختلفة في تدوين حقبة تاريخية مشرقة من التواصل التواتي الشنقيطي. انطلاقا من منبع النازلة الفقهي، وتسلسل أحداثها التاريخية. وتتمحور إشكالية الموضوع في السياق البحثي عن الهياكل المدعمة لهذا التلاحم، وتسليط الضوء حول الأطراف الفاعلة والمؤسسة لعملية التلاقح الحضاري، في ظل الظروف المصاحبة لأحداث القضية، من خلال تقصي مراحلها. لإدراج موضوعها ضمن خانة الأحداث التاريخية المهمة؛ خاصة وأنها تناولت فترة حساسة من تاريخ توات وشنقيط.

وفي هذا الصدد نقدم مجموعة تساؤلات تتدرج ضمن إشكالية الموضوع. نحاول الإجابة عنها أثناء الدراسة: فيما تكمن أهمية نازلة القوافل التجارية؟ وماهو التفسير التاريخي للأحداث المرتبطة بالقضية التي عالجتها؟ وماهي الجوانب الحضارية التي تطرقت لها النازلة فيما يخص العلاقة التواتية الشنقيطية؟.

ولمعالجة الموضوع اعتمدنا المقاربة المنهجية التاريخية القائمة على سرد الأحداث وتحليل موضوعاتها وتركيبها، من خلال عرض وقائع الحادثة ومحاولة تقديم تفسيرات علمية مرتبطة بالتواريخ والمعطيات المسجلة في الوثائق والكتابات المعاصرة لفترة الدراسة، والتي من شأنها تحقق فرضية الترابط الإجتماعي من نواحيه المتنوعة، مما يرسخ فكرة مساهمة النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية عن طريق تحديد سبل وأفاق التواصل بين الشعوب الصحراوية.

2. التعريف بالقصري ونوازله:

1.2. المولد والنشأة والتعلم:

هو الفقيه النبيه البحر الهمام العالم العلَّامة القصري بن الفقيه محمد بن المختار بن عثمان بن الفقيه القصري الإيلبي نسبا الولاتي منشأ النعماوي وطنا (القصري م.، 2009، صفحة 7)، ولد بولاتة عام 1151هـ/1737م في أسرة علم وجاه من سليل قبائل المرابطين (بن حامد، 1994، صفحة 41)، ورغم ضبابة سِنِّي حياته الأولى، وتجافي الكتابات التاريخية تقديم ترجمة وافية عن نشأته وموارد علمه المختلفة. إلا أن ملامح الأسرة العالمة بدت ظاهرة في شخصه، من خلال تكوينه المحلي على يد والده أولاً، ثم الإلتحاق بمحظرة الطالب البشير بن الحاج الهادي، قرأ عليه وأجازه في القراءات السبع (إدارة الثقافة والفنون، 2013، صفحة 55)، واستمر على هذا المنوال حتى ارتقى درجة العالم المتمرس الطويل الباع في ميدان الفقه والأدب.

وقد شهدت ولاتة منذ القرن (10هـ/16م) نهضة فكرية ارست قواعد متينة لازدهار البلاد في شتى الميادين الحضارية، وآلت مقصد شيوخ وطلاب العلم السوادين والمغاربة أمام حالة الا استقرار التي كانت تعيشها مجتمعاتهم (السعدي، 1981، صفحة 65)، وساعد المزيج الثقافي العلَّامة القصري على التشبع برصيد فقهي أهله لخوض غمار الفتوى ومقارعة كبار فقهاء البلاد.

فلم تذكر الكتابات التاريخية سفريات علمية قادته إلى مراكز الحضارة المغربية التي أعتاد جهابذة العلم الشنقيطي ارتيادها بغرض الإفادة والإستفادة، أمثال: الفقيه النوازلي سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي(ت 1233هـ/1818م)، والذي دخل في سجال فقهي عويص مع القصري، ناقضه في فتوى نازلة قتيل صفين من جهة الأغلال أثناء عراكهم مع أهل سيدي ببكر حول سقي، حيث حكم القصري فيه ببراءة الأغلال من دية القتيل، لكونه من طائفتهم استناداً لأدلة قدمها (القصري م.، 2009، الصفحات 202–203)؛ وهو ما أعترضه العلوي في بادئ الأمر ثم تراجع بعد مطالعة معمقة لجوانب القضية، فأقرَّ برأي القصري وجمهور علماء الشناقطة بشأن المسألة المطروحة (سالم، 1997، الصفحات 104–105).

كما استثمر القصري قواه العلمية مشتغلا بالتدريس، وقائما بمهام الإفتاء الشرعي والقضاء بين الخصوم. حتى اندلاع الحرب بين شرفاء ولاتة من أولاد السي حمو بلحاج سنة 1222هـ/1807م (Ould Moulay El Hassane, 2002, pp. 258–259)، وجاءت نهايتها إيذانا بانتقال أحد طرفي النزاع. أولاد مولاي صالح وحلفائهم من قبيلتي ابدوكل وايديلبه من ولاتة وتأسيس مدينة النعمة سنة 1223هـ/1808م (مجهول، 1991–

1992، صفحة 28)، واغتنم القصري الفرصة وارتحل رفقة عائلته وبعض أفراد قبيلته للاستقرار بالنعمة مخلفا ابنه الأوسط بولاتة إماما بإحدى مساجدها، وحافظ العلامة الجليل على نهجه التربوي وإصلاح ذات البين إلى أن وافاه الأجل سنة 1235هـ/1821م عن عمر ناهز خمسة وثمانون سنة (إدارة الثقافة والفنون، 2013، صفحة 55).

هذا واختتم القصري عطائه العلمي بمجموعة مؤلفات فقهية نفيسة، تناولت مسائل عديدة، أبرزت علو كعبه وغمرة إطلاعه الذي شهد به الموافق والمخالف، وتنوعت إسهاماته بين الشروح والتأليف والفتاوي المتفرقة، ونذكر ما نقله صاحب "منح الرب الغفور" (المحجوبي، 2011، صفحة 98): شرح نفيس على نص خليل في أربعة أجزاء سماه "فتح الجليل"، وشرح أخر على فرائض خليل، نوازل مخطوطة في عدة أجزاء جمع فيها مختلف أحكام الفقه المالكي وهي التي نخصها بالدراسة، وله أيضا فتاوى كثيرة مفيدة نافعة.

2.2 قراءة مختصرة في نوازل القصري:

اهتمت نوازل القصري بالمسائل الفقهية الشائعة والخفية التي عادة ما ترفع إلى الفقهاء والأعلام، وسلك مؤلفها التنظيم المعمول به في سائر النوازل المغربية بترتيب أبوابها حسب مختصر خليل، فهو لم يكن الشنقيطي الوحيد المتضلع في هذا العلم، بل سبقه وعاصره علماء عظام تمرسوا في النوازل والأحكام الفقهية، أمثال: حماه الله التشيتي، المختار بن الأعمش، وابن أنبوجه، والحاج عبد الله بن إبراهيم... وكلهم كانوا على قدر واسع من العطاء؛ إلا أن نوازله إمتازت بخصائص فريدة. اشترك مع الفقهاء في بعضها وأختلف عنهم في البعض الأخر، ونذكرها من باب العدِّ لا الحصر:

- عمق الطرح ودقة التحليل أثرت إيجابا على قوة الفتوى عن طريق تقديم أراء عدة فقهاء في النازلة الواحدة قبل إصدار الحكم. مثل قضية بيع الوكيل بضاعة الموكل في بلد جرى العرف فيها التعامل بالدين أو مبادلة السلع، فسرد المؤلف مجموعة فتاوى وأراء أجمع أربابها أن العادة في الفقه محكمة والعُرف كالشرط قاض معمول به (القصري م.، 2009، الصفحات 245–246)، وخلصوا أن بيع الوكيل صالح إذا لم يعقد إتفاق مسبق مع موكله عن كيفية البيع. استنادا لتفويض الشيخ خليل بجواز إطلاق الوكالة في البيع بعرف البلد السائد (البغدادي، 2016، صفحة 160).
- جودة التنظيم على طبق ترتيب خليل لتسهيل المراد وتيسير الكشف عما يراد، حيث بدء نوازله بمسائل من التوحيد ثم تدرج في القضايا حسب اقتضاء الحاجة الشرعية (القصري م.، 2009، صفحة 21)، وحرص على تبسيط الأجوبة حتى يتسنى للقارئ فهمها وإسقاط قضاياها على واقعه المعاش (ولد الشيخ سيديا، 2020، الصفحات 336–382).

● تنوع مصادر الفتوى وإفساح حقل المعرفة الشرعية على سائر أئمة وفقهاء المذهب المالكي، سواء المتقدمين أو المعاصرين للفترة المرتبطة بالسؤال المطروح، ودافع ذلك كثرة المسائل وتشعبها. فأحصى المحقق ما يقارب 2240 سؤالا وجوابه (القصري م.، 2009، صفحة 6).

● الأمانة عند النقل بعزو الأقوال إلى مظانها وختم النص المنقول بعبارة: أ هـ المراد منه أو بتصرف. إلا أنه رغم أمانته العلمية وتبحره الفقهي واللغوي وقع ضحية الخلط في نسبة المراجع إلى أعلامها. حيث وقف المحقق على نقول من شروح خليل وخاصة "مواهب الجليل" نسبها المؤلف إلى "المدونة" (القصري م.، 2009، صفحة 5)، وغيرها كثير من المؤلفات الفقهية.

● اختصار أسماء أعمدة النوازل بحروف دلالية تفاديا للتكرار، مثل: "طخ" الطخيخي، و"حم" سيد أحمد بابا، و"غ" ابن غازي، و"ف" المواف، و"ح" الحطاب، و"س" السنهوري، و"عج" علي الأجهوري، و"مخ" محمد الخرشي، و"شخ" الشبرخيتي...وغيرهم (القصري م.، 2009، صفحة 21).

● مسايرة الأحداث التاريخية الراهنة وتسويغها وفق المنهج الشرعي التفسيري، فنوازله مناسبة لكل زمان، ويمكن اسقاط أحداثها على شتى مجالات البحث العلمي. فهي مفيدة للباحثين في التاريخ الموريتاني والصحراوي والسوداني على حد سواء، بدراستها قضايا حساسة تتعلق بطبيعة العلاقات السياسية والإقتصادية والإجتماعية بين الأفراد والجماعات، وكذا نهج التعامل والتواصل بين الشعوب.

ونضيف إلى خصائص كتاباته في جانب تنوع مصادر الفتوى، وقوفه على فتاوى أعلام تواتيين ظلوا مغمورين في النوازل الشنقيطية رغم شهرتهم في بلاد الساحل الأفريقي، فلاحظنا أنه طعم جوابه في بعض مسائل قضاء دين الغريم بفتوى للفقيه التواتي سيدي محمد المصطفى بن أحمد الرقاد الكنتي، ومدحه بعبارات تقديرية مثل "شيخنا" (القصري م.، 2009، صفحة 235)، وهي عادة ألفناها عند استدلاله بأقوال المشايخ الفضلاء توحي معدنه الأصيل وتواضعه مع سدنة العلم وخدام الشريعة السمحة.

أما النازلة التي سوف نخصها بالدراسة فهي تدخل ضمن نوازل الجزء الرابع في "**باب رسائل القضاء**"، وقد اضطررنا أحيانا إلى الرجوع لإحد النسخ المخطوطة، لتذليل بعض الهفوات التي وقع فيها المحقق، والمتمثلة أساسا في أسماء أشخاص وأماكن مرتبطة بالقضية المعالجة، سقطت منه سهوا أو لعدم معرفته الشخصية بها. أما أجزاء النوازل فهي مقسمة حسب النسخة المخطوطة التي اعتمدها المحقق إلى أربعة أجزاء وفق التدرج الآتي:

الجزء الأول: مسائل من التوحيد والعبادات المفروضة (القرآن، الحديث، الصيام، الصلاة، نوازل الزكاة، نوازل الصوم...).

الجزء الثاني: قضايا المجتمع المتعلقة بالعلاقات الأسرية (الزواج، الطلاق، الحضانة، اللعان، الصداق...).

الجزء الثالث: المعاملات التجارية وما قد ينجر ورائها من منازعات (البيع، الرهن، الوكالة، الشراكة، الغصب والتعدي، الضمان...).

الجزء الرابع: مسائل القضاء والمرافعات وقضايا متفرقة أخرى (الخصومات، الجعل، الحبس، الجنايات، السرقة، الوصايا...).

3. أهمية نازلة القوافل في التأريخ للعلاقة التواتية الشنقيطية:

1.3 تقديم النازلة:

نوجز القضية باختصار في دعوى رفعت للعلَّامة القصري، بشأن قافلة نقض حراسها أعريب من أولاد رزق. يترأسهم عبد الله بن أعيش الميثاق المنعقد بينهم والشريف محمد المهدي بن مولاي عبد الله ومرافقيه، وقدَّم كلا الطرفين حجته مخاصما عن نفسه ونائبا عن قومه في القضية، التي حكم القصري فيها لصالح محمد المهدي وأصحابه بعد اطلاعه على عقد كراء الطرفين، ونتصُّ وثيقة الكراء الأصلية المؤرخة بتوات أوائل ذي الحجة عام 1226هـ/1811م، أن محمد المهدي وجماعته ربطهم عقدا مع أولاد رزق العربيين، بخصوص كراء موصولا لبلاد النعمة، عدة محموله ستة وأربعون حملا من الشَّمَّة ولكل حمل عشرون مثقالا ذهبا عينا؛ إلا أنه خلال الطريق عند منهل يسمى "**التهمة**" فسخ أعريب أرباب الكراء العقد الأول، ونسخوا عوضه كراء جديدا مع محمد المهدي مخالفا للأول تحت طائلة التهديد، بترك محموله هناك إذا لم يقبل العرض المقترح، ونصَّ عقد الكراء الجديد تقليص عدة المحمول إلى ثمانية وعشرين حملا من الشَّمَّة بمقدار عشرين مثقالا لكل حمل ذهبا عينا كراء مضمونا لازما من بلاد بوعل (بوعلي إحدى قرى توات) إلى ولاتة وإن ظهر عذر يبلغوهم النعمة...

2.3 أهمية النازلة في العلاقة التواتية الشنقيطية:

تكمن أهمية نازلة القوافل التجارية من توات إلى شنقيط في القضايا المحورية التي روجت لها، وبواسطتها قدمت إضافة نوعية لموضوع تمازج الثقافات وانتشار المعارف، ومن القضايا المستخلصة من النازلة المدروسة، نذكر من باب المثال لا الحصر الآتي:

استعرضت النازلة المطروحة الجانب المتوارى من معاناة مرتادي الطرق الصحراوية، فإضافة إلى المخاطر الطبيعية والبشرية التي لا تسلم منها قافلة صحراوية من نهب اللصوص وقطاع الطرق وتقلبات موسمية تصل درجة فقدان المسافرين حياتهم (الوزان، 1983، صفحة 76)، كشفت النازلة بعض ممارسات أعريب التعسفية ضد وكلائهم عن طريق تزوير العقود باستحداث عقودا غيرها، وقد عانى محمد المهدي ورفاقه أثناء الرحلة من توات إلى شنقيط تجاوزات خطيرة بطلها حراس القوافل. بداية من تغيير وجهة القافلة إلى ولاتة بدل النعمة، واكبها التلاعب بمحمول الشَّمَّة قصد استنزاف الوكلاء ماديا، وجرِّهم دفع رسوم إضافية غير المقررة في عقد الكراء الأصلي. قدرها 10 مثاقيل ذهبية لكل راكب جمل من الرفاق إلى أروان (القصري م.، 2009، صفحة 360).

ويمكن تفسير تردُّد محمد المهدي الدائم على موطن أجداده توات مدعاه إقتصادي إجتماعي. غرضه التجارة وتحبين أملاك العائلة بقرية بوعلي من نخيل وعقار (المهدي م.، د ت، صفحة 1)، رسخ بواسطتها ارتباط أبناء العمومة في توات وشنقيط، واستطاع الشريف عملا بنصائح أقاربه وأصدقائه في توات تحرير عقد كراء مطابق للأصلي، بخط محرر الوثيقة الأولى محمد بن محمد صالح بن عبد الله التواتي، وشهادة مولاي الشريف بن مولاي إدريس، للإحتجاج بها مستقبلا إن حدث ونقض المكترون الضمان الموثَّق، لأن عادة أعريب حسب تجربة سكان توات الغدر بمن يكتريهم، وإجباره أثناء الطريق تمزيق العقد الأصلي واستحداث عقدا وهميًّا، يُحصلون به فوائد مضاعفة تفوق المتفق عليها مسبقا بينهم والتجار (القصري م.، 2009، صفحة 359).

ومن خلال مسايرة وقائع القضية. نستقصي مسألة حساسة تناولتها النازلة، متمثلة في الصراع بين سفراء توات بمدينة ولاتة أواخر ذي الحجة عام 1222هـ/1807م. والذي اختزلته الكتابات التاريخية تحت مسمى"**عام وقوع الشر بين الشرفاء**" (جدو، د ت، صفحة 34)، وهي القضية التي تفاعل معها أبناء السي حمو بلحاج في توات بكثير الأسى والحسرة والسخط (المهدي م.، د ت، صفحة 1)، واتخذها أعريب وسيلة ضغط على محمد المهدي. فحبسوا أمواله بولاتة أواخر ذي الحجة عام 1226هـ/1811م لدرايتهم المسبقة إستحال مجيئه بصفته أحد طرفي النزاع من جهة أحفاد مولاي صالح. ودفع هذا الموقف محمد المهدي إلى اكتراء إبلا أخرى، وتفويض محمد بن هنون بن بوسيف أحد زعماء قبيلة أولاد مبارك الحسانية، التي ربطت أمرائها صداقة وثيقة مع أهل مولاي صالح، من أجل مرافقة محمول الشَّمَّة وايصاله النعمة. مقابل ثمنا معلوم من الذهب قدره 46 مثقال على حماية الإبل ومبالغ أخرى لأصحاب الكراء الجدد (القصري م.، 2009، صفحة 360).

ولأن المعاملات التجارية تسير وفق ضوابط دقيقة تقتضيها المصلحة العامة من حقوق وواجبات. حددت النازلة تفاصيل عقد الكراء بعرض إجمالي الحمولات المقدر بـ 46 حمل من الشمة، وتحديد ثمن كل حمل بـ 20 مثقالا ذهبيا مع الإقرار بزيادة حمل وربع حمل في وزن 6 حملات. ومن منطلق شهرة توات بإنتاج وتصدير مادة التبغ التي تعدُّ من الصادرات التواتية الرائجة في الأسواق الأفريقية (القصري م.، 2009، صفحة 178؛ جعفري، 2011، صفحة 404)، رأينا في معرض القضية كيف تحايل مقدم الحراس عبد الله بن إعيش ومرافقيه، واسقطوا قرابة نصف المحمول في عقد الكراء المستحدث. ويمكن تفسير هذا التحايل بالقيمة السوقية المرتفعة لهذه العشبة، والإستهلاك الواسع لها، سواء في مناطق شنقيط أو البلاد الواقعة جنوبها من بلاد السودان.

4. البعد الحضاري للنازلة في التواصل التواتي الشنقيطي:

رغم ما أكتنف قضية عقود القوافل التجارية من انحراف أخلاقي يتنافى ومبادئ الدين الإسلامي. لا يمت بصلة بالعادات والأعراف الإجتماعية، إلا أنها كشفت اللثام عن أواصر الترابط بين الشعبين التواتي ونظيره الشنقيطي الذي بلغ ذروته مطلع القرن (13هـ/19م).

وتبرز معالم التلاحم الحضاري التواتي الشنقيطي في النازلة الفقهية من خلال ربط جزئياتها بموقع مدينة أروان الوسطي بين شمال وجنوب الصحراء، ودورها في حركة القوافل العابرة للصحراء الكبرى. فالمدينة بعيدا عن صراعاتها القبلية تعتبر حاضرة علم يقصدُها الفقهاء والطلاب، ومركز تجاري يجتمع بها أرباب الأموال، لتبادل السلع وتزويد السكان بضروريات الحياة (الأرواني، 2020، صفحة 26)، مما أضطر محمد المهدي ورفاقه إلى إقتراح أروان موطن أرباب الكراء مرحلة أخيرة لإنهاء العقد المبرم فور الوصول إليها، بعد الذي حدث بينهم والحراس عند منهل التهمة من تلاعب بالمحمول وتقطيع العقد الأصلي (القصري م.، 2009، صفحة 359).

وتجدر الإشارة إلى تواجد حواضر موازية لا تقل قيمة تاريخية عن أروان بواسطة دورها المحوري في حياة المجتمعات الصحراوية (SABATIRE, 1891, p. 24)، فشكلت مدن تنبكتو وبوجبيهة والمأمون والمبروك معبرا دائما لركب الحاج الشنقيطي للبقاع المقدسة عبر توات. متمثلا في رحلة الحاج محمد البشير البرتلي الولاتي عام 1204هـ/1791م، والتي كان مولاي عبد الله الملقب بشيخ العافية والد محمد المهدي أحد ركائزها ومقدميها، وجمعتهم أثناء رحلة الذهاب لقاءات علمية مع بعض الأعلام البارزين أمثال الشيخ محمد الأمين بن أحمد السوقي، ومزارات لقبور الصالحين في تنبكتو (البشير، 2021، الصفحات 79–85)، ومنهم الشريف سيدي حمٌّ بن الحاج الجدّ الأعلى للأسرة البلحاجية في توات والسودان الغربي وتافيلالت المغربية.

وبالرجوع إلى وقائع النازلة التي حكَّم فيها العلَّامة القصري لصالح جماعة النعمة كما ذكرنا سابقا. بحجة أن دافع الإكراه كان وراء فسخ عقد الكراء الأول، خوفا من ضياع المال في البيداء والفلات، والشريعة السمحة أعذرت المُكْرَه، وأدرجته مع الناسي والمخطيء في منزلة واحدة يشمله ما ينطبق عليهما. مصداقا لقوله ﷺ: {**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**} (ابن ماجة، د ت، صفحة 659)، وبدمج الأحداث تاريخيا. فقد ربطت عائلة القصري مع أهل مولاي صالح رابطة قرابة عن طريق المصاهرة (بن حامد، 2011، صفحة 297)، بدأت في ولاتة التي كانت تُسيَّر قبل وأثناء القرن (13هـ/19م)، وفق نظام الولاءات القبلية والتجمعات الثنائية، قاعدتها المحاجيب أصحاب المرجعية الدينية (الإمامة)، والأغلال، وايديلبه، والشرفاء، وبارتيل الذين يحسبون إداريا مع الشرفاء، وينضوي تحت كل لواء من هذه القبائل مجموعات صغيرة عجمية، أو عربية تشكل معها أحلاف مناصرة (POULET, 1904, p. 120).

واستمر التراص الإجتماعي بين أهل مولاي صالح وعائلة القصري قائما على مبدأ الإحترام والتقدير المتبادل حتى بعد انتقال العائلتين للسكن بالنعمة، وهو ما أفرزته رسالة محمد المهدي لأخيه مولاي إسماعيل في النعمة، يخبره نبأ وصوله بوعلي (بوعلِ) ومباشرة عمله في الفقارة، لتدارك خسائر المنتوج الفلاحي المتمثل في التمر والزرع والشَّمَّة، وختم الرسالة بطلب تبليغ السلام نيابة عنه للعلَّامة القصري، قائلا: "...**وسلِّم مني على شيخنا وقدوتنا وسيد زماننا ووالدنا الطالب القصري أدام الله حياته لنا وللمسلمين...**" (المهدي م.، د ت، صفحة 1).

ومن خلال قراءة تفاصيل القضية لابد من التنويه به، أن حكم القصري جاء عقب سماع شكوى الطرفين، ومقارنة وقائعها بمسألة فقهية تشترك معها في خلفيات الإدعاء ودوافع الإكراه (القصري م.، 2009، الصفحات 364–365). أين خلع ثوب الصداقة التاريخية والقرابة الأسرية، ولبس ثوب القاضي العادل الحاكم بما أقره الشرع، وما وافق جمهور الأئمة والفقهاء.

5. خاتمة:

إن نازلة القوافل التجارية من توات إلى شنقيط، وما طغى عليها من أحداث لا إنسانية في أغلب مراحلها، صور جانبها الأخر عمق العلاقة التاريخية بين أهالي المنطقتين، من منظور سفراء توات في ولاتة والنعمة أبناء السي حمو بلحاج خلال القرن (13هـ/19م)، حيث حددت النازلة الطرق والأساليب الكفيلة بعملية الترابط الثنائي من مبدأ تأثير الشخصيات الفاعلة في الأوساط الإجتماعية، وكذا الدور الحضاري للمراكز الصحراوية، باعتبارها

المنفذ الحتمي للقوافل التجارية والحجية خارج البلاد، من أجل عقد الصلات وتذليل صعوبات الطريق، ومن النتائج المتوصل إليها ما يلي:

– يمثل فقه النوازل نموذجا حضاريا لدراسة تاريخ الشعوب من زواياها المختلفة، فنازلة عقود القوافل طرحت قضايا جديرة بالإهتمام إذا ما ربطنا حيثياتها بالواقع المعاش خلال الفترة التي عاشها مؤلف النوازل القصري.

– تناولت القضية المطروحة بالتفصيل السلسلة المفقودة في كتابات المؤرخين والجغرافيين عن مشاكل وصعوبات المسالك الصحراوية من خلال عرضها قضية تبديل العقود التي اغفلت عنها الدراسات كثيرا وبقيت في خانة المجهول.

– موسوعية العلَّامة القصري وتبحره في العلوم الشرعية من خلال تقديمه حجج وبراهين دامغة مردُّها فتاوى أعلام المذهب المالكي أبطلت إدعاءات الحراس وأيَّدت احتجاج الوكلاء في شأن عقد الكراء الثاني.

– أخذت القضية أبعادا سياسية متمثلة في صراع شرفاء توات في ولاته وأخرى إجتماعية ساهم محمد المهدي فيها بقسط كبير مستغلا صلته الوثيقة بالعلَّامة القصري، وتنقلاته المستمرة بين النعمة وتوات موطن أجداده.

– أشارت النازلة إلى نقاط إستراحة القوافل الصحراوية مثل آبار المياه (منهل التهمة)، ومدينة أروان التاريخية، فكثيرا ما كانت هذه النقاط غاية المسافرين في التزود بضروريات الرحلة من عرض سلع وطلب خدمات أو الالتقاء بأهل العلم والفضل.

– الترويج للمحاصيل الزراعية التواتية الواسعة الانتشار داخليا وخارجيا، فشكل منتوج الشمة إلى جانب التمور بأنواعها المختلفة عمود الإقتصاد التواتي الذي اسست عن طريقه علاقات متينة بين توات وغيرها من البلاد الواقعة جنوبها من السودان الغربي.

– تقديم فكرة حول طبيعة التنظيم السياسي والإجتماعي في البلاد السائبة عند غياب نظام السلطة المركزية فيكون القضاء الشرعي هو الفيصل في القضايا المرفوعة بتأييد غير مباشر من الشخصيات ذات النفوذ القبلي داخل هذه المجتمعات.

وفي ختام الدراسة نشير إلى أن التأريخ للعلاقة التواتية الشنقيطية يحتاج دراسات أعمق ومجهودات أكبر، وما قدمناه في بحثنا ما هو إلا غيض من فيض، فالرابطة الأخوية بين الشعبين الجارين ضاربة في أعماق التاريخ وسابقة للقرن (13هـ/19م)، والقضية التي تطرقنا إليها في المنظور العام كشفت مجالات متباينة من أشكال الترابط، ويكفي الباحثون والمهتمون بهذا الشأن أن يخصصوا لكل مجال دراسة متفردة يمكنها إن تقدم إضافات

نوعية، هذا طبعا إذا توفرت مادة الموضوع العلمية وأصبحت في المتناول؛ خاصة وأن أغلبها عبارة عن وثائق مخطوطة تحتوي معلومات قيمة وثرية في هذا الجانب.

6- الملاحق

الملحق1: وثيقة عقد الكراء الأصلي المبرم بين التجار والحراس في توات

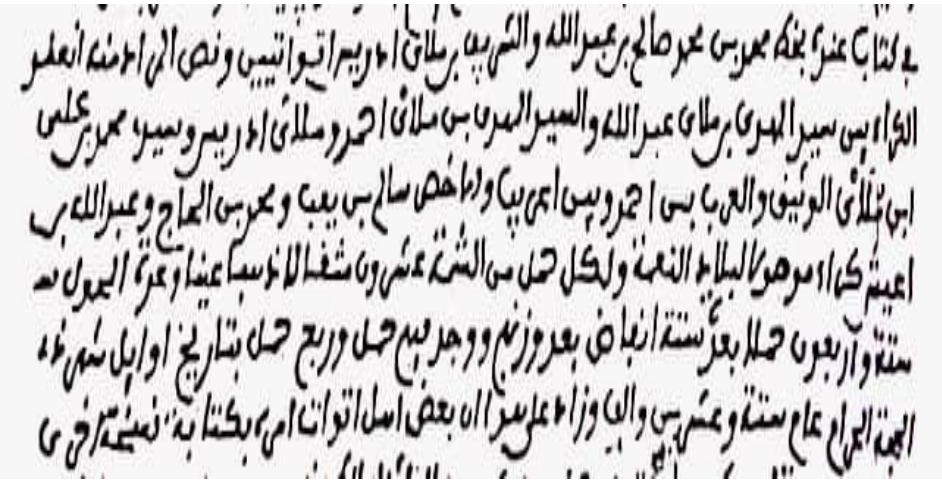

الملحق 2: وثيقة عقد الكراء الثاني المبرم بين الطرفين عند منهل التهمة بحجة فسخ مولاي المهدي الكراء الأول

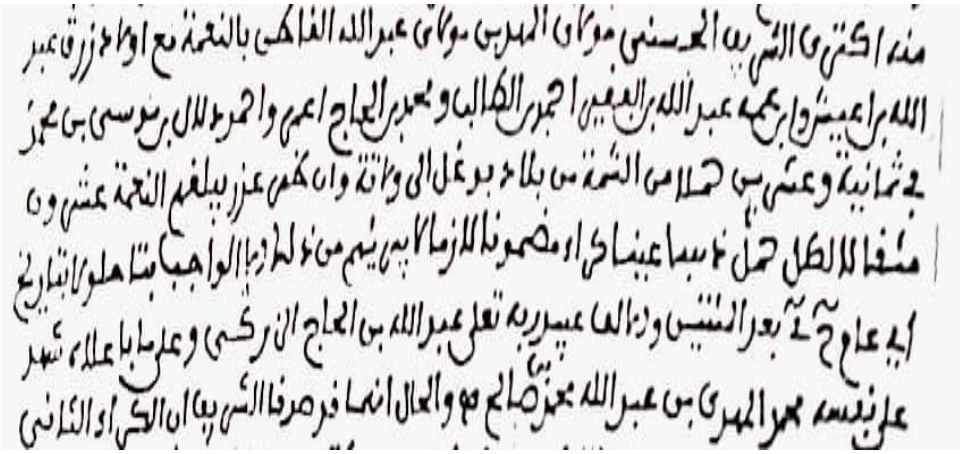

7- التعليقات:

1- يلبه أو إيديلبه: وهم من برابرة صنهاجة ينسبون إلى قبيلة كواليل تجكانت المنتشر بطونها في حواضر الصحراء الأفريقية الكبرى وغرب أفريقيا، ويتفرع عن قبيلة ايلبه (ايديلبه) فروع كثيرة منهم: أولاد يحي (قبيلة القصري)، والزحافة والنواسيغ...المقيمون في ولايات الحوض الشرقي الموريتاني ولاتة والنعمة، وفروع أخرى إنقرضوا (بن حامد، 1994، الصفحات 43-44).

2- عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233هـ/1818م): أصولي محدث وفقيه كبير من أجلّ علماء شنقيط أثرا وتدريسا، ارتحل إلى المغرب والقاهرة والحجاز وعاد بعلم غزير أفاد به الجم الغفير، وممن جالسوه وانتفعوا بعلمه السلطان المغربي محمد بن عبد الله بن مولاي اسماعيل الذي ربطته به علاقات طيبة، ووظف العلوي قدراته المعرفية في نشر علوم الحديث وأصول الفقه عن طريق مؤلفاته ذات الانتشار الواسع والقبول العظيم (بن أبي بكر الصديق، 2010، الصفحات 308-311).

3- حرب شرفاء ولاتة: وقعت أحداثها في 25 نوفمبر 1807م عند بطحاء ولاتة بين شرفاء أولاد السي حمو بلحاج القادمين من توات، وسببها معارضة أهل مولاي صالح الإمتيازات التي حققها أهل مولاي الخليفة جراء رئاستهم الفخرية لمدينة ولاتة بتفويض من المحاجيب، ورأوا أحقيتهم بالمنصب كونهم أقدم استيطانا وتأثيرا من آل الخليفة بحكم أن دار جدهم مولاي الصالح بولاتة مجمع الشرفاء أبناء العمومة لمعالجة المشاكل والقضايا السائدة بالمدينة (Ould Moulay El Hassane, 2002, pp. 258-260)

4- سيدي عمر بن المصطفى الرقاد الكنتي المتوفى سنة 1157هـ/1744م. كان من جهابذة علماء توات ومعلميها الذين يشهد له بغزارة العلم وطيبة الخلق، كثير الرحلات العلمية لسجلماسة وبلاد التكرور بغرض الإفادة والإستفادة، كتب له تلميذه ورفيقه في أسفاره عبد الرحمن بن عمر التنلاني ترجمة وافية في فهرسة شيوخه (عمر، 2008-2009، صفحة 130).

5- أعريب: يطلق اللفظ في المصطلح الموريتاني على القبائل العربية والبربرية والزنجية المستضعفة داخل المجتمع، واللفظ في الأصل تصغير لاسم عربي الذي احتكره بنو حسان في منظورهم القومي لأنفسهم دون غيرهم من قبائل الزوايا أو الطبقة الوسطى (النحوي، 1987، صفحة 33).

6- أولاد رزق أو أولاد رزك: ذرية رزق بن أُدي بن حسان، حكمت قبيلتهم إقليمي الترارزة والبراكنة في جنوبي غربي موريتانيا من القرن التاسع إلى صدر القرن الحادي عشرة الهجري تاريخ سقوط إمارتهم على يد أبناء عمومتهم المغافرة في معركة أنتينام الشهيرة سنة 1040هـ/1630م (صالح، 2015، صفحة 165).

7- محمد المهدي بن مولاي عبد الله (ت 1275هـ/1859م) أخواله من قرية بوعلي التواتية، لأن أمه نانة عيشة بنت مولاي المهدي بن مولاي علي بن مولاي محمد بن سيدي حمو بلحاج من ذات القصر، وتتحدث وثائق العائلة أنه كان أكثر أبناء السي حمو بلحاج المقيمين في شنقيط ترددا على توات (ولد جعفر، 2021).

8- هو محمد الطيب بن محمد صالح بن عبد الله بن علي بن يوسف، عاش مناصفة بين القرنين (12-13هـ/18-19م)، لم تحفظ الكتابات التاريخية أو الروايات الشفوية شيئا عن سيرته، سوى ما استقيناه من وثائق عثرنا عليها. ومن بينها وثيقة تحبيس بعض أملاك أحفاد مولاي صالح بن السي حمو بلحاج في قصور توات، تعود لسنة 1196هـ/1782م كان محمد الطيب ناسخها استدل بها ابن القصري (أحمد، 1254هـ/1838م، صفحة 4)؛ ومرد ذلك عدم تخصيص كتاب تلك الفترة حيزا لهذه الفئة المهمة في المجتمع من تراجمهم، مما يجعلها في طي النسيان خلاف فئة الأعلام الذين كتب عنهم الكثير.

9- أولاد مبارك: فرع من المغافرة الحسانيين اتجهوا مشرقين في فترة الصراعات الحسانية على السلطة في الجنوب الغربي بحر القرن (11هـ/17م)، وبسطوا نفوذهم على منطقة الحوضين في أقصى الجنوب الشرقي، واسسوا إمارة ذاع صيتها في الذاكرة الشعبية انتهت تحت تأثير الحروب الداخلية والخارجية أواسط القرن (13هـ/19م) (فال، د ت، صفحة 23).

10- البشير بن الحاج أبي بكر البرتلي (ت 1214هـ/1800م): صاحب الرحلة الحجازية المدونة التي كانت توات أحد محطاتها الرئيسية، يعرف في بلاده شنقيط بالشاعر المداح، لملازمته قراءة قصائد المديح النبوي، وكذا خبرته بضروب القصائد العشرينيات وتخميسها والهمزية (بن أبي بكر الصديق، 2010، الصفحات 154-155).

11- مولاي عبد الله بن سيدي محمد بن مولاي الصالح (ت 1216هـ/1802م): كان رحمه الله تعالى كريما سخيا مداوما على أفعال الخير، ذو خبرة بأمور السياسة، محبا لأهل الدين ملازما لهم، رزقه الله تعالى مالا عظيما، انفق جلَّه في مساعدة المحتاجين، وزيارة بيت الله الحرام بغرض أداء مناسك الحج (المحجوبي أ.، 2011، صفحة 72).

12- محمد الأمين بن أحمد السوقي (ت 1214هـ/1800م): من أئمة العلم المجتهدين الذين كانت لهم اليد الطولى في شتى فنونه: النحو، الصرف، القراءات السبع...، تصدر الإفتاء والتدريس زمن الفتن والحروب والأهوال، فكان يقصده طلاب العلم من الأقطار البعيدة، للتعلم وحل عويصات المسائل. (بن أبي بكر الصديق، 2010، صفحة 266).

13- سيدي محمد بلحاج (ت 1062هـ/1652م)، وهو الذي كان يعمل برسم التاجرة بين تافيلالت والسودان الغربي مرورا بأرض توات، وحصَّل عن طريقها أموال طائلة فرق جلَّها في وجوه الخير، وإعانة الصالحين، وخلف عقبا له في مختلف البلدان التي كان دائم التردد عليها (الفضيلي، 1999، صفحة 145؛ جعفري، 2011، صفحة 65).

14- قبيلة بارتيل: من قبائل ولاتة العالمة المنتسبة لزوايا الأنصار المهتمين بالتعليم وسبل تطوير الحياة العلمية في البلاد، يعتبر أبناء هذه القبيلة من العوائل الشنقيطية التي اسست علاقات روحية مع الزاوية الرقانية في توات عن طريق مريديها الوافدين على الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني، كما ورثت الرابطة الإجتماعية لقبائل أخرى، فساهموا بواسطة هذه الإرساليات في بعث أواصر المحبة والترابط بين الشعبين التواتي والشنقيطي (المحضري، د ت).

قائمة المراجع:

أولا. المراجع العربية:

- أحمد بن القصري محمد بن المختار، (1254هـ/1838م)، أحباس عائلة أبناء مولاي صالح بن السي حمو بلحاج في توات، وثيقة مخطوطة بحوزة ولد جعفر سيدي محمد، نواكشوط، موريتانيا.
- الأرواني أبي الخير بن عبد الله، (2020)، تاريخ أروان وتاودني، مؤسسة البناء المعرفي، الجزائر.
- إدارة الثقافة والفنون، (2013)، من أبرز علماء شنقيط، وزارة الثقافة والشباب والرياضة، نواكشوط، موريتانيا.
- البرتلي جدود بن طالب، (د ت)، أحداث موريتانيا تبدأ من القرن 11هـ حتى أواسط القرن 1300هـ، مخطوط، مكتبة الأوقاف داده، تيشيت، موريتانيا.
- البرتلي محمد البشير، (2021)، أقدم رحلة شنقيطية مدونة- الرحلة المباركة للحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي، تحقيق، عبد العزيز منير وآخرون، دار بريل للنشر في ليدن المحروسة، بوسطن، هولندا.
- البرتلي محمد بن أبي بكر الصديق، (2010)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق، ولد عبد الله عبد الودود وولد الحسن أحمد جمال، دار أنجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- البغدادي أبو محمد عبد الوهاب، (2016)، التلقين في الفقه المالكي، ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر.
- جعفري أحمد أبا الصافي، (2011)، من تاريخ توات أبحاث في التراث، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر.
- ولد جعفر سيدي محمد، (16-10- 2021)، علاقة محمد المهدي بتوات، تسجيل صوتي عن طريق وسيلة التواصل الإجتماعي (واتساب)، نواكشوط، موريتانيا.
- بن عبد الوهاب محمد صالح، (2015)، الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية، تحقيق، حماه الله ولد السالم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

– الوزان محمد بن الحسن، (1983)، وصف إفريقيا، تحقيق، حجي محمد والأخضر محمد ط2، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

– بن حامد المختار، (2011)، حوادث السنين – أربعة قرون من تاريخ البيضان بموريتانيا وجوارها، دار الكتب للتراث، أبو ظبي، الأمارات.

– بن حامد المختار، (1994)، موسوعة حياة موريتانيا الجغرافية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

– النحوي خليل، (1987)، بلاد شنقيط المنارة والرباط (عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

– ابن ماجة أبي عبد الله الحافظ القزويني، (د ت)، سنن أبن ماجه، تحقيق، عبد الباقي محمد فؤاد، ج1، مطبعة دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

– المهدي محمد، (د ت). رسالة من بوعلي في توات إلى النعمة في شنقيط، مخطوط بحوزة ولد جعفر سيدي محمد، نواكشوط، موريتانيا.

– المحجوبي أبي بكر بن أحمد المصطفى، (2011)، منح الرب الغفور فيما أهمله صاحب فتح الشكور، تحقيق، محمد الأمين بن حمادي، ENS EDISIONS، ليون.

– المحجوبي أبي بكر بن أحمد الصديق وآخرون، (1991–1992)، حوليات ولاتة، تحقيق: سيدي عبد الله بن البخاري، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز، قسم التاريخ، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، موريتانيا.

– المحضري محمد الأمين، (د ت)، رسالة من أعيان ولاتة إلى الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني، وثيقة مخطوطة، مكتبة الطالب ببكر المحجوبي، ولاتة، موريتانيا.

– السعدي عبد الرحمن، (1981)، تاريخ السودان، نشره هوداس وبنوه، باريس، فرنسا.

– العلوي محمد فال بن بابه، (د ت). التكملة في تاريخ إمارتي الترارزة والبراكنة، تحقيق، أحمد ولد الحسن، منشورات بيت الحكمة، تونس.

– سالم محمد وآخرون، (1997)، تاريخ القضاء في موريتانيا من عهد المرابطين إلى الإستقلال، المدرسة الوطنية للإدارة بالتعاون مع المطبعة الرسمية، تونس.

– الفضيلي مولاي إدريس، (1999)، الدرر البهية والجواهر النبوية، تحقيق، المهدي العلوي، ومصطفى العلوي، ج1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية.

– القصري محمد بن المختار، (2009)، نوازل القصري، تحقيق، الدمياطي أبو الفضل، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

– ولد الشيخ سيديا باب ولد أحمد، (2020)، أهمية الفتاوي والنوازل ودورها في كتابة التاريخ المعاصر في موريتانيا، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، جامعة وهران، الجزائر، المجلد2 (العدد1).

– التنلاني عبد الرحمن بن عمر، (2008–2009)، فهرسة شيوخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي، تحقيق، بعثمان عبد الرحمن، بحث مكمل لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية الأدب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، الجزائر.

ثانيا. المراجع الأجنبية:

- MAHDI Ould Moulay El Hassane, (2002), Tafillat Au Hodh Chargui- La Saga Saharienne De Awlad Sidi Hamou Ben Elhaj, Etude Africaines, Rabat.

- POULET, Georges, (1904), Les Maures de l'Afrique Occidentale fraçaise, Librages Maritime et Coloniale, Paris, Français.

- CAMILLE, SABATIRE, (1891), Touat Sahara et Soudan, Socité D' éditions Scientifiques, Paris, Français.